القصص

قصة مصرية

القبلة الأولى و... الأخيرة !

للأستاذ دريني خشبة

[الحوار في الأصل باللهجة المصرية]

كان ذلك في مصحة ....

وكانت فتاة شاحبة ذات عينين كبيرتين شاعرتين ، تطل منهما نفس حزينة متألمة ، تارة تحلق في السماء تدعو الله اللطيف وتصلي له ، وتارة تنظر إلى المصحة التي اجتمعت فيها أمراض وأحزان وأماني ؛ وكانت تجلس فوق مقعد منفرد في زاوية منعزلة في الحديقة الصينية التي تكسبها التماثيل البوذية والظلات والرابية الكبيرة ومساقط المياه ذات الخرير جلالاً ورونقاً وهدوءاً يشبه موسيقى الأرواح الباكية التي ترفرف أبداً في سماء تلك المصحة الرحيمة

وكانت الفتاة تسبل فوق رأسها شُفوفاً من الحرير البنفسجي تداعبه نسمات الحديقة كلما هبت رُخاءً في ناحيتها ... ولكنها تركت السماء كلها ، بما تفيض به من رحمة ولطف ، واتجهت بكل روحها الى نافذة بعينها في المصحة ، وراحت تحدق فيها تحديقاً شديداً ، ثم أخرجت من (شنطتها) منديلاً صغيراً وضعت فيه لآلئ غالية كانت أوشكت تنهمر من عينيها

وكانت الشمس قد آذنت بغروب ، وكانت تصب ذهب أشعتها على نواصي التماثيل الرائعة ، ولكنها كانت تصب أكثر هذا الذهب على ناصية بوذا الأكبر كأنها تستهزئ به ، لأنه إله من حجر ! وكانت ألف فكرة تزدحم في رأس «سهام» كلما تقشعت الشمس قليلاً قليلاً عن رأس التمثال ، فتبتسم ابتسامة ساخرة ... وتخفي دمعة كبيرة في منديلها الصغير

وأقبلت جارية «حبشية» فحيّت الفتاة ، وأشارت إليها سهام فجلست عند طرف المقعد المنفرد المصنوع من جريد النخل ...

— « سيدتي ! »

— « ... ؟ ... »

— « أرسلني البك الكبير أناديك »

— « ولماذا عاد مبكراً هذا المساء ؟ »

— « لا أدري ، وهو يقول إنه يود أن يشرب الشاي مع سهام هانم »

— « وإذا لم تكن لسهام رغبة في الشاي ولا في القيام من هنا فـ ... »

— « سيدتي ! ألا ترحمين شبابك ؟ »

— « أرحم شبابي كيف يا مسعدة ؟ »

— « من هذا الذي أنت فيه ! »

— « وما ذا أنا فيه يا مسعدة ؟ »

— « الفكر المتصل والحزن الذي لا حد له ... »

— « أشكرك يا مسعدة . إذهبي فاعتذري عني للبك — أنا لم أعد أحب الشاي في هذه الساعة »

— ولم في هذه الساعة ؟ »

— « لأنها كانت أول شكواه من هذا المرض الخبيث ، ومن يدري ، فربما كانت أول شكواي أنا أيضاً ... »

— « يا سيدتي ارحمي شبابك قلت لك . إنها أيام ويغادر المصحة سليماً معافى ، ألست تثقين في تأكيدات الدكتور ؟ »

— « الدكتور ؟ ... أنت طيبة القلب يا مسعدة ! أنت طيبة القلب جداً »

— « الدكتور يؤكد أن سيدي نادر بك يتعافى يومياً ، وسيتماثل للشفاء قريباً ، وأنا أرى أنك تتلفين صحتك بهذا اليأس

الذى يدمى قلبك ويجرح نفسك ويقرح عينيك ؛ سيدتى سهام هانم : ألا تسمعين نصيحتى ؟ »

— « وأى نصيحة يا مسعده ؟ »

— أنت شابة جميلة ، والمستقبل أمامك مشرق بسام ، والدنيا مقبلة تكاد تتمرغ تحت قدميك و ... أوه ... لا أجرؤ أن أقول ... »

— بل قولى يامسعده ، قولى ... أنا شابة جميلة ... والمستقبل أمامى مشرق بسام ... والدنيا مقبلة تكاد تتمرغ تحت قدمى ... ... الله الله يا مسعدة ... ثم ما ذا ؟ »

— « سيدتى سهام ... إنى أعتذر ! ! »

— « تعتذرين ! تعتذرين من أى شىء ! بل لا بد أن تقولى ألستِ (داده) يا مسعدة »

— « لا ... لا أجرؤ ... »

— « لا تجرئين على أى شىء يا مسعدة ... إن لم تقولى فانك تحزنيننى »

— « ولكن على شرط ... إن لم ترقك الفكرة فلا تضمريها لى »

— « لك هذا يا مسعدة »

— « ألا تستطيعين أن تصرفى قلبك عن نادر بك .. »

— « أهذه نصيحتك أيتها العجوز ! إذهبى فلن أشرب شاياً قلت لك »

— « أ ... أ ... »

— « إذهبى ... إذهبى »

* * *

— « يامسعدة قلت لك لا شأن لك بسهام ونادر ، لقد كان يعبدها قبل مرضه ، وكان يوشك أن يخطبها لولا وفاة والدته ... وهى أيضاً تحبه حباً يمتزج بكل قطرة من دمائها ، إنها تكاد تجن من أجله ... إنها لا تنام أبداً ، و ... »

— « وماذا يا عثمان ... »

— « وهى تنسرق كل ليلة إلى المصحة وتزوره ، وأخشى أن تكون أصيبت بمرضه ، لأنى أسمعها تسعل كالمسلولين . . . مسكينة ... »

— « لا قدر الله يا شيخ . . . إنها حزينة فقط ، وأنا لا أدرى لحزنها سبباً ، فألف شاب جميل غنى يتمنون أن تصبح لأحدهم زوجة . . ولكنها تأبى إلا أن تسمع لقلبها .. قُتل الحب ، إنه لا عقل له ! لقد كلمنى اليوم عصام بك وألح على فى محاولة التأثير عليها ، وهو يضع كل ما يملك رهن تصرفها ، فماله هذا الشاب الوجيه ؟ ! صحة وثروة وأسرة ... وشباب ! »

* * *

— « يا ابنتى رفقاً بنفسك ، أقسم لك بالله وبشرفى أن الدكتور أكد لى اليوم أن لنادر أياماً قليلة جداً ويغادر المستشفى سليماً معافى ... »

— « سليماً معافى ... متمتعاً ... بكامل صحته . ، هيه ... يارب ، سيغادر المستشفى إلى الأبد ... هذه هى الحقيقة ! »

— « أجل ، سيغادره لتعيشا معاً فى نعيم إلى الأبد ! سهام ! »

— « بابا ... »

— « هلمى نجلس قليلاً فى الحديقة ، هلمى يا ابنتى ، القمر جميل ، والنسيم رَخِىّ ، و ... »

— « بابا ... »

— « سهام ! »

— « أنا لا أحب الحديقة ولا أحب القمر ... لنبق هنا ... الدنيا برد ! »

— « يا ابنتى لا تعبسى للدنيا هكذا ... »

— « الدنيا ؟ آه يا بابا ... سأعبس لها إلى أن يشاء الله ! »

— « لا حول ولا قوة إلا بالله ... سهام ، أنت تحرقين نفسك وتتلفين روحك فى نار عاطفية كان ينبغى ألا تجعلى لها وزناً فى رجاحة عقلك وسلامة تفكيرك ... لقد كنت أحاول أن أصارحك بحقيقة نادر ولكنى كنت أخشى على قلبك الغض وشبابك الرطب أن تعصف بهما كلماتى ، مع أنها لخيرك ... سهام ! استيقظى يا ابنتى ! حقاً لقد أحبك نادر كما تحبينه ، وكنت أنا نفسى ألمس محبته لك وهو يكلمنى من أجلك ، وعندما سلّمنى (السوار الماسى الجميل) الذى جعله تقدمةً لزواجه منك ، كنت أشهد فى عينيه دموعاً محبوسة تريد أن تنهمر ، عرفت منها أثر تحقيق الأحلام فى نفوس الشباب — ولقد كنت أوشك أن

أرفض هذا الزواج أول الأمر ، لما كنت ألحظه فى صحة نادر من التدهور والتهدم ، لكنى قرأت حبه فى عينيك ، وشهدت حرارة روحه تتورد فى خديك ، فتألقت ، وفرحت ، وذكرت (المرحومة) والدتك وما كانت تتمناه لك من السعادة الأبدية ورخاء البال ، فوافقت ، وضاعف ألمي وفرحى أنى رأيتك سعيدة به بقدر ما هو سعيد بك ، وهنا فقط ... غلطتى ... غلطتى التى لا يغفرها لى إلا أنى لم أكن أعرف أن تدهور صحة هذا الشاب النبيل هو أول هذا المرض الخبيث العضال ... سهام ! استجمعى قواك ! لا تجزعى هكذا ... إن ألف شاب جميل رقيق القلب وافر الغنى فى انتظارك ... وقد خاطبنى الكثيرون فعلا قبل أن يعترض طريق حظك ولدى نادر ... سهام ... تشجعى ! أنت صغيرة يافعة يا بُنيَّة ! نحن كلنا نرثى لشباب نادر ، وكنا نضرع إلى الله أن يشفيه ! ... و ...

— « بابا ... »

— « سهام ! »

— « ماذا تقول ؟ كنا نضرع إلى الله ! ... ماذا قال لك الدكتور اليوم ؟ »

— « هذا هو الذى كنت أخشى أن يكون ! ليهدأ قلبك يا بُنيَّتى ، وليستيقظ عقلك الساهى ... أريد ألا أفقد ابنتى الوحيدة كما فقدت زوجتى ! إرحمى أباك الشيخ المحطم الذى لم يعد له أمل فى الحياة غيرك ... أنت شمسه المشرقة فلا تحرميه من دفئها إلى الأبد ... إن ثلج المشيب يطفئ روحى قليلاً قليلاً ... وكلما رأيتك يا سهام ارتد إلىَّ شبابى ، وانهزمت آلامى ، وتفرجت كروبى ... فلولاك للحقت بأمك ، ولولاك لأغمض ظلام المنون حياتى ... سهام ! انظرى إلىَّ ! أرهفى أذنيك ! تحملى الصدمة منى ... نادر فى الطور الأخير من المرض ... »

— « بابا ... »

— « سو ... ! سهام ! هى صدمة كبيرة لا شك ، وأشد منها أنى أرجوك ... أرجوك يا ابنتى ... أرجوك ... يا ... سهام ! »

وساد بين الرجل وابنته صمت عميق ، تخللته دموع أسوانة ... ثم وصل الأب حديثه قائلا :

— « أرجوك يا ابنتى أن تقطعى علائقك بنادر ... دعى ما فى القلب للقلب ، ولكن لا تذهبى إليه ... لا تزوريه فى المصحة ... لقد أنذرنى الدكتور مرتين ، وقد فصل الممرضة المسكينة التى كانت ترحم دموعك وترثى لحبك فتوصلك اليه فى ظلام الليل خلسة ! العدوى يا سهام ! أنت غالية عندى جدا ، وعزيزة علىَّ جدا ، وإذا فقدتك فقدت كل شىء ... سهام ! سهام ! تكلمى يا ابنتى ! ردى علىَّ ! ماذا ؟ تبكين ! ؟ أنت طفلة ... لا ، لا ... ألم يخلق الله غير نادر ... »

— « بلى ... بلى يا أبى ! لم يخلق الله غير نادر لى ... لى أنا على الأقل ! ولذلك ... لا أعدك ! لا يمكن أن أعِدَك يا بابا ... و ... أنا متعبة جدا ... أريد أن أنام ... عن إذنك »

* * *

مسكينة سهام ! لقد جاءت نصيحة والدها متأخرة جدا ! لقد كانت تنتظر حتى تنام أعين الرقباء ، وتغفى جفون الليل ، ثم تنسل فى جنح الظلام إلى المصحة ، غير حافلة ببرد الشتاء ، ولا قر الصحراء ؛ وهناك كانت ترشو البواب الفقير ، وتجزل له العطاء ، ثم تعرج إلى الطابق العلوى ، فاذا لقيها بعض الخدم حفوا بها واحتفوا ، فتنفح هذا قرشاً وذاك قرشين ، حتى تلقى الممرضة الصغيرة الجميلة التى كانت تعرف سر قلبها وعلالة نفسها ، فتنسى هذه كل قوانين المصحة فى سبيل قوانين الحب ، وتمضى بين يديها إلى غرفة نادر ... المسلول المدنف البائس ... فتقف لحظة خاطفة ، وتستأذن ... لتخلى الطريق المكهرب بين القلبين الحبيبين

وكان نادر يقدر لسهام تجشمها الصعاب من أجله ، وكان يلقاها دائماً بابتسامة عذبة محزونة ، وعينين سادرتين مثرورقتين ، وروح تكاد تثب لتلقاها بذراعين من سرور !

يا لله ... ويا للحب ! !

لم يكن نادر يجهل خبائة مرضه ، ولم يكن يجهل أن عدواه شديدة الفتك ، وكانت سهام كنزه الروحى الذى يضمن له السعادة والأحلام ، ولذلك كان يحرسها دائماً بابعاد فمه عن ناحيتها ، وكان يزوى وجهه عنها أو يدسه فى منديل كلما كلمها . وكانت هى لا تبالى أن تدنو منه لتدلل له على أنه حياتها ، وأنها لا تبالى أن تصاب بمثل ما يشكو منه ، وذلك من عمى الحب وجهله ؛ بيد أنه كان يرجوها فى حرارة أن تبتعد ، فاذا لم تُصِخْ ، دس

رأسه بين الوسادتين ، وراح ينتحب . فتشفق عليه وتبتسم

وفُصلت الممرضة التي كانت تُسهل لهـا زيارة نادر لفتنة شبت بين الخدم من أجل قروش سهام . . . والحق أن الرحمة بالمحبين في هذه الأماكن الخطيرة حماقة من الرحماء المشفقين !

على أن سهاما لم تَنىَ بزيارة نادر ، بل استطاعت بقروشها أيضاً أن تنفذ إليه مرات ومرات !

ولم تكن سهام تجهل أن فتاها في الطور الأخير من مرضه ، ولم تكن في حاجة لأن يخبرها أبوها بذلك ، ولـكن تلقّي الأخبار السيئة يكون جديداً كلـا امتلأت به الأذن مرة بعد أخرى ، وضاعف وقع الخبر في نفس سهام أن الدكتور أكّده . فلـما ذهبت إلى مخدعها لتنام طفقت تتقلب في أشواك من الهموم ، وفوق إبر من الأفكار السوداء التي تشبه الخفافيش

وذهب أبوها إلى مخدعه كذلك ، ولـكنه ما كاد يستقر فيه حتى سمع ابنته تسعل . . . ثم تسعل . . . وهنا هاجت خلية من اليعاسيب في رأسه ، فنهض من فوره وتوجه إلى غرفتها ؛ ولـكنه وقف عند الباب يَتسمَّع ويتسمَّع . . .

« آه يا نادر . . . يا حبيبي يا نادر . . . كيف أعيش بعدك يانادر ؟ . . . »

وكان الصوت ضعيفاً عميقاً ينشق عن صدر ممزق ونفس محروبة ؟

ودخل الوالد الذاهل عن نفسه فجلس بجانب ابنته على سريرها ومر بأصابعه على رأسها فأحس كأنه يحترق

وكانت سهام ما تنفك تسعل . . . وتسعل

ونهض أبوها فتكلم مع أحد أصدقائه الأطباء في (التليفون) فجاء على عجل . . . وزار سهاما . . . وبكل أسف كان هو نفس الدكتور الذي تسبب في فصل الممرضة من المصحة

وداعبها الطبيب بكلمات حلوة منمقة معسولة ، وخرج ولم يكلم أباها . . ولـكنها سمعته يقول وهو يطوي الدرج «أنا قلت ، أنا قلت . . . » فكانت حماقة أدهى من حماقة الممرضة !

وتبسمت سهام تبسما حزيناً ، وجعلت تتمتم « نادر ؟ سويا يا نادر !! »

ولـما أحضرت قوارير الدواء وزجاجاته حدجتها الفتـاة بنظرات الاشمئزاز ولم تذق منها جرعة !

* * *

واشتدت وطأة المرض على سهام ، ولم تكن هناك وسـيلة خير من انتقالهـا إلى المصحة ، المصحة نفسها . . . . ولم تشعر بغضاضة وهي تلم شمثها لتنتقل اليها ، بل كانت تحس كأنها ذاهبة إلى الجنة لتلقى ثمة حبيبها الذي خيل لها كأنه دخلها منذ بعيد . . ومن العجيب أن صحتها تقدمت تقدما محسوساً في الأيام الأولى ، لأن شـعور الفرح والرضى لمجاورة نادر كان يغمر قلبها ويفعمه بالمسرة

وجاءت ساعة الهول والفزع الأكبر

أمضت سهام ليلة مقرورة ممتلئة بالوساوس ؛ ولم تكن عيناها تغفل قليلا إلا لتصحو فزعة من أحلام سوداء تتعلق بنادر . . . فلقد رأته مسجى فوق سريره ، وقد تناثر الورد من حوله ، ولف في ثوب حريري أبيض كبير هفهاف ، ووقف عند رأسه عصفوران أبيضان يغردان تغريداً مشجياً حزيناً . . ثم ما هي إلا لحظة حتى أغمض النائم عينيه . . . وطار العصفوران إلى السماء . . . !

وهبت سهام مذعورة . . . وآلت أن تذهب إلى نادر ، وعبثا حاولت الممرضة الطيبة الموكلة بهـا أن تطمئنها . . . وعبثا حاول الخدم معاونة الممرضة في تسكين روح سهام . . . التي راحت تصرخ بملء صوتها الضعيف المحشرج . . . وهبت تناضل الجميع لتمضي إلى حيث فتاها المريض

وجاء الطبيب . . . وفشلت كل مساعيه في إقناعها بالنوم والراحة . . . وأخيراً سمح لها

كانت تمشي ضعيفةً موهونة متثاقلة ، وطوت الدرج في مشقة . . . وكانت تسعل سعالاً مؤلماً . ولـما دنت من غرفة حبيبها المسكين وقفت تسترق السمع

« آه . . . . آه » ثم سعال يعقبه سعال « » سهام ! يا سهام ! أنائمة أنت ! شفاك الله يا حبيبتي ! ألا أراك ! وداعاً إذن ! »

وكان الصوت خشناً كأنه يخرج من بين شقي رحا !

— « نادر ! مالك يا نادر ! »

— « سهام ! »

— « أجل ! أنا سهام ، مالك ! أمتعب أنت ؟ »

— « لا ، ولـكني أعتب عليك ، أ . . . أتنزلين . . . آه »

— « مالك يا نادر ؟ »

— « إذهبي إلى غرفتك فاستريحي . . . الدنيا برد . . . ارحمي نفسك . . . أنا شاكر لك . . . آه . . . »

— « بل أجلس معك يا نادر ... مالك ! »

— « لا شيء لا تزعجي ؟ »

وكان الطبيب الرحيم البار ينظر إليهما ويبكي ؟

— « خبرني يا حبيبي ... أتشكو شيئاً ! »

— «اطمئني ياسهام ... يجب أن تعيشي لوالدك ولشبابك»

— « أنت تزعجني ! »

— « لا تزعجي أبداً ! ... فأنا ... »

وضعف الصوت قليلاً ... ثم قليلا

— « مالك ... مالك ... يا دكتور ، تعال ... إكشف عليه ! »

— « لا فائدة يا سهام ! يجب أن تعيشي ! سهام ! »

— « نعم يا حبيبي ! »

— « ألا ... آه ... كم أستحي أن أقول لك ؟ »

« — بل قل ... قل يا نادر ! »

— « كنت أحلم أن أفوز منك بقبلة تنير لي طريق إلى الدار الآخرة ! »

ودنت منه ، وقبل أن تهوي على فمه تقبله ، انقض الدكتور فحال بينهما ! ؟ !

يا للسخف !

ولان قلب الدكتور فوضع منديله على وجه نادر ، وأشار إلى الفتاة ، فدنت منه ... وطبعت عليه قبلة باكية ... ولكنها أحست بشفتيه الباردتين الثلوجتين ... وبحركة خاطفة رفعت المنديل وحدقت في وجه الفتى ... ولكن ... وا أسفاه ... لقد فارق الحياة

وتوجهت سهام إلى الله بنفس حزينة راضية ... وغادرت المصحة بعد أيام ، ولكن لا إلى قصر أبيها وحدائقه ... ولا إلى أحلامها وأمانيها !

دريني خشبة

بشرى لعشاق التاريخ الاسلامي

تقوم أكبر دور النشر بالمغرب ، وهي المكتبة التجارية الكبرى بفاس وتطوان بعمل جليل تزفه إلى عشاق التاريخ الاسلامي في الأقطار العربية كافة ، ذلك أنها اعتزمت طبع أثرين نفيسين ، أولهما :

١ — تاريخ ابن خلدون

وهو الموسوعة التاريخية الخالدة ، التي وضعها أكبر رأس عربي مفكر ، بعد أن أشرفت على تحقيقها وضبط أعلامها وتصحيح أخبارها ومراجعتها على النسخ المخطوطة منها ، ثم التعليق عليها — لجنة علمية من أئمة مؤرخي المغرب وكبار علمائه . أضف الى ذلك أن عليه حواشي وتعليقات لا حاجة بنا الى إطرائها وبيان قيمتها ، بعد أن تصرح باسم صاحبها أمير البيان وكاتب الشرق الأكبر : (الأمير شكيب أرسلان) — وفوق ذلك كتب مقدمة التاريخ الأستاذ الكبير العلامة أحمد أمين

ويطبع الآن (تاريخ ابن خلدون) في القاهرة طبعاً متقناً يليق بجلال الكتاب ، مصححاً أدق تصحيح ، وسيصدر في أربعة عشر جزءا . وقد صدر الجزء الأول منه . وقد اطلع الراغبون في هذا الكتاب على إعلان بجريدة الأهرام ، ففهموا أن الاشتراك يكون في جزء واحد وقدره ١٥ قرشاً عدا أجرة البريد وقدرها ثلاثون مليما في مصر ومائة مليم في الخارج من مختلف الأقطار العربية كالعراق والسودان وغيرها ، فتوالت علينا الرسائل على هذا الأساس ؛ ونرجو أن يعلموا أن الاشتراك لا بد أن يكون في جزءين ، فيدفع المشترك ٣٠ قرشا ، ويتسلم الجزء الأول ثم إذا تم الجزء الثاني وتسلمه أرسل ٣٠ قرشاً أخرى ، وهكذا . هذا وسيصدر الجزء الثاني بعد شهر واحد

أما ثاني الأثرين النفيسين ، فهو :

٢ — الحلل السندسية

في الأخبار والآثار الأندلسية

وهو أكبر دائرة معارف للأندلس ، تحيط بكل ما جاء عن ذلك الفردوس المفقود ، بقلم أمير البيان وفخر العروبة :

الأمير شكيب أرسلان

وقد تم طبع الجزء الأول منه . أما الاشتراك فيه ، فمثل الاشتراك في تاريخ ابن خلدون

والاشتراكات ترسل باسم السيد محمد المهدي الحبابي المقيم الآن بالقاهرة ؛ وعنوانه : بالمطبعة الرحمانية بالحرنفش ، أوصندوق بريد الغورية ، أو لجنة التأليف والترجمة والنشر بشارع الكرداسي رقم ٩ عابدين

ومن أرسل قيمة الاشتراك في ابن خلدون أو في الحلل السندسية أو فيهما معاً وصلت إليه الأجزاء بأقصى ما يمكن من السرعة

وستقبل الاشتراكات على هذا النحو لمدة أربعين يوماً للمقيمين بمصر . وستين يوماً للمقيمين بالخارج . وبعد ذلك ترفع القيمة